التوبة والاستغفار

أيها القارئ الكريم:

هل فكّرتَ يوما في سرِّ وجودِك وسبب بقائك ؟

صفحةُ الكون تمتد أمام عينيك، كلُّ ما فيها يخاطِبُك ويحدثك فهل أدركتَ لغة النعم وفهمتَ خطابَها ؟

أنت تشربُ الماء عذباً فراتاً فهل سألت نفسك كيف جاء إليك ؟

بين يديك ألوان من الأطعمة هل فكرت يوماً كيف تعددت ألوانها واختلف مذاقُها مع أنها تنبت في أرضٍ واحدة وتسقى بماء واحد ؟

إنك مدعوٌّ إلى التفكر والتدبر، في نفسك وفيما حولك ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [1]

أنت مرتبط بنعم ينشدها وجودك وتطلبها حاجتُك. فأنت طالبٌ. وللطلب بابُه وأسبابُه. والرسول ﷺ يعلّمك حتى لا تَضِل، أو تطلبَ الأمر من غير بابه.

---

(١) الرعد : ٣ ، ٤.

عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: « كنتُ خلفَ النبيِّ ﷺ يوماً، فقال لي: « يَا غُلامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَات: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْك، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّه، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُف » [1]

وفي رواية غير الترمذي: « احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ. تَعَرَّفْ إِلَيْه فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّة، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّه، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْه، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْه، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْب، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » [2]

إنك في حاجة دائماً أن تفرَّ إلى الله، مُخطئاً كنتَ أم مُصيباً، إن كنت مخطئاً طلبت المغفرة ومَن يغفر الذنوب إلا الله ؟ وإن كنت مصيباً شكرت الله الذي وفَّقك ليزيدَك من نعمه ويمدَّك بفضله ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾ [3]

إنك تنتقل بحاجتك من مرحلة طفولتك إلى شبابك إلى رجولتك وشيخوختك، وإن شئت اختصاراً واقعاً، فمن مرحلة حياتك إلى موتك إلى بعثك..

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه أحمد.

(٣) إبراهيم : ٧.

أنت في جميع حالاتك طالب. فما السبيل لسد حاجاتك في جميع مراحلك ؟

إنك في حاجة إلى الزاد في كل مرحلة، فمن أين يأتيك ؟ وكيف تُحافظ عليه مع طول السفر وبُعد الطريق ؟

اقرأ معي وتدبر ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ ﴾ (١)

﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠ ﴾ (٢)

الباب – إذن – هو باب الاستغفار والتوبة ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠ ﴾ (٣)

إنه باب لتأمين أمرك في المراحل كلها ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ ﴾ (٤)

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١ ﴾ (٥)

---

(١) هود : ٣،٤.

(٢) هود : ٩٠.

(٣) النساء : ١١٠.

(٤) نوح : ١٠-١٢.

(٥) هود : من الآية ٦١.

ولكن ماذا كان حالُ رسولِك ﷺ بالنسبة للتوبة والاستغفار وقد كان خُلُقُهُ القُرآن ؟

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « وَاللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » (١)

وفي رواية مسلم عن الأغرِّ بن يسار المُزنيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ » (٢)

أخي القارئ الكريم:

التوبة والاستغفار سبيلُك لتأمين أمرك بمرضات ربك. والتوبة لأصحاب المعاصي إقلاع عن المعصية، وندمٌ على فعلها، وعزمٌ على عدم العود إليها. وأداء الحقوق لمن لهم حق.

وحرصُ الرسول ﷺ على التوبة والاستغفار في اليوم مئة مرة - مع كونه معصوماً- يضع أمامك طريق الأسوة به، في إخلاص العبودية لله ذي الجلال والإكرام.

وقد استبان لك أن جميع أمرك مرتبط بمرضاتِ ربك ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٣)

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) آل عمران : ١٣٥.

والمعصوم ﷺ يعلمنا كيف نضرعُ إلى الله في كل وقت، ونفرُّ إليه دائماً ولا ننساه. والله - جَلَّ وَعَلاَ - يقول: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (١)

عن أبي حمزَةَ أنس بن مالك الأنصاريِّ خادم رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « للَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ (٢) وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلاةٍ » (٣)

و في رواية لمسلم: « لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِه - حِينَ يَتُوبُ إِلَيْه - مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِه بِأَرْضٍ فَلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِه، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ » (٤)

وعن أبي موسى عبد الله بن قيسٍ الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: « إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » (٥)

أخي القارئ الكريم:

اعصم نفسك دائماً بذكر ربك ومرضات خالقك؛ لتصونها من عدوِّها الذي

---

(١) النساء : ١١٠.

(٢) أي : عثر على موضعه، والمراد : صادفه من غير قصد.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه مسلم.

يأبى إلاّ أن يشاركَكَ في طعامك وشرابك ومبيتك، فإذا سَمِعَ ذِكْرَ الله خرج ذليلاً مدحوراً، ينشد المبيت عند الغافلين، ويطلب الطعام عند اللاهين العابثين.

عن جابر ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِه، وَعِنْدَ طَعَامِه، قَالَ الشَّيْطَانُ: لا مَبِيتَ لَكُمْ وَلا عَشَاءَ. وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِه، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ. وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِه قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ » (١)

وعن حذيفة ﷺ قال: « كنَّا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ طعاماً لَمْ نَضَعْ أيْدِينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضَعَ يَدَه. وإنَّا حَضَرْنا مَعَه طعاماً فجاءت جاريةٌ كَأَنها تُدْفَعُ، فذهَبَتْ لتضعَ يَدَها في الطعام، فأخَذَ رسول الله ﷺ بيَدِها، ثم جاء أعرابيٌّ كَأَنَّما يُدْفَعُ، فأخَذَ بيَده، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لا يُذْكَرَ اسْمُ اللَّه عَلَيْه وَإِنَّهُ جَاءَ بِهَذِه الْجَارِيَة لِيَسْتَحِلَّ بِهَا فَأَخَذْتُ بِيَدِهَا فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِه فَأَخَذْتُ بِيَدِه وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدِهَا » (٢)

أخي القارئ الكريم:

هل عرفت كيف يَصونُك ذكرُ الله ويحفظُك ؟ يحفظك من الشيطان عدوِّك الذي يتربصُ بك ويغتنم غفلتك.

اجعل توبتك إلى الله واستغفارَك لذنبك أساساً في عملِ يومِك، فإن رسول الله - وهو المعصوم ﷺ - كان يتوب إلى الله في اليوم مئة مرة.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

واحذر أن تدفعك معصيتُك إلى الفرار مع اليائسين القانطين.

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٢)

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٣)

واحفَظْ قولَ ربك: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٤)

اجعل التوبةَ والاستغفارَ مِنْ عمل يومك، وأنت في طاعتك واستقامتك أحوجُ ما تكونُ إلى الاستغفار والتوبة؛ حتى لا تركنَ إلى عملك وتنس فضْلَ ربِّك. ولا تُفرط في سبب من الأسباب التي أمر الله بها في تدبير شئونك والقيام بطاعة ربك.

واحذر أن يَشغَلك عاجلٌ عن آجل، فإن فرطت فأنت مذنب، واطلب التوفيق من الله وأنت تؤدي واجبك؛ فإن « **الإيمان ما وقر في القلب، وصدَّقه العمل** »

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (٥)

ولا يكن أمرُك - وقد أعطاك الله من فضله - كأمر أولئك الذين خَدعتهم أنفسُهم، وقادهم شيطانهم إلى ذكر أنفسهم ونسيان فضل الله عليهم، حتى قال

---

(١) يوسف : ٨٧.

(٢) الحجر : ٥٦.

(٣) المائدة : ٧٤.

(٤) طه : ٨٢.

(٥) مريم : ٩٦.

أحدُهم: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ (١)

فكان الجزاء: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٢)

أما منطق المؤمنين - وهم يرون نعم الله بين أيديهم، ورحمته تَشْمَلُهم، ومعرفَتُه تملأ قلوبَهم - فهو منطق الشاكر المعترف بفضل الله، اليقظ في إجابته وهو يُمتَحن ويُختَبرُ: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (٣)

نسأل الله أن يجعلنا منهم (آمين).

❁❁❁

(١) القصص : من الآية ٧٨.

(٢) القصص : ٨١.

(٣) النمل : من الآية ٤٠.